

# تنظيم التعليم في المسجد الجامع بدمشق

## قبل نشوء المدارس

د. ملكة أبيض

ينظر بعض الدارسين الى نشوء المدارس على أنه بداية نظام التربية العربية الاسلامية، الا أن المدارس تشكل في الحقيقة جانباً واحداً من جوانب النظام الذي بدأ مع ظهور الاسلام، ونما مع انتشاره في الجزيرة العربية وما حولها، على هدي النموذج الأول الذي وضعه الرسول ﷺ، وتلبية للحاجات المتزايدة التي تمخض عنها هذا الانتشار.

فقد نشأت المدرسة الأولى في دمشق وهي المدرسة الصادرية عام ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م، أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبدالله، بباب البريد (على باب الجامع الأموي الغربي) (١). الا أن التعليم بدأ في هذه المدينة، في الحقيقة، مع الفتح، وفي مسجدها الجامع - أول مؤسسات التعليم بدمشق وأهمها على مدى قرون طويلة.

ويهدف هذا العرض الى تقديم صورة عن تنظيم التعليم في هذا المسجد الجامع، خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة، أو الفترة الممتدة من الفتح الى نشوء المدارس؛ ذلك التنظيم الذي شكل القاعدة الرئيسة للمؤسسات التربوية الأخرى التي انتشرت في مدينة دمشق أثناء تلك الفترة وما بعدها.

### □ نشأة الجامع :

للمسجد الجامع مكانة عظيمة في حياة الجماعة الاسلامية، فقد كان يقوم قديماً مقام عدد كبير من مؤسساتنا المعاصرة. كان المعبد الذي يؤدي المؤمنون فيه شعائر دينهم، والمعهد الذي يتعلمون فيه أمور هذا الدين (وأمر دنياهم أحياناً)، والمنتدى الذي يؤمنونه ليتصل بعضهم ببعض ويتداولوا شؤونهم الادارية والسياسية والعسكرية،

والساحة التي يجتمعون فيها لسماع قرارات أمرائهم وأخبار فتوحهم ، ودار القضاء التي يلجؤون إليها لحل خلافاتهم . وكان أحياناً مضافة الغريب وصومعة الناسك ، وأحياناً أخرى موضع بيت المال ، أو مستقر خزائن الكتب ، أو غير ذلك مما تتطلبه حياة الجماعة بأوسع معانيها . إلا أن الوظيفة التربوية للمسجد الجامع كانت تحتل مكان الصدارة ،

هذه المكانة الكبرى للمساجد الجامعة جعلت المسلمين يباشرون انشاءها فور حلولهم في منطقة ما . وهكذا أنشئ المسجد الجامع بدمشق عقب الفتح مباشرة (٢) ، فقد خطه أبو عبيدة بن الجراح (٣) بجانب كنيسة القديس يوحنا (٤) . وكان بناؤه بسيطاً على الأرجح ، إلا أنه كان يتسع لما يقارب ألفي شخص (٥) . وسرعان ما ضاق البناء بقاصديه على سعته نظراً لاستقرار الفتح وازدياد أعداد المسلمين . فامر الخليفة الوليد بن عبد الملك بإضافة كنيسة القديس يوحنا إليه لزيادة سعته ، وأعاد بناءه عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م (٦) .

كان جامع دمشق، كغيره من الجوامع، المؤسسة التربوية الرئيسة التي تستقبل الجميع، طول الوقت ، وتقدم لهم التعليم المناسب في القرآن والحديث ، وتزودهم بالأحكام المستخلصة من هذه النصوص في مجالات الحياة العملية ، كما ترشدهم الى الأسلوب الصحيح لأداء شعائر الدين . وقد حقق المسؤولون والمعلمون في القرون الأولى للهجرة هذه الأغراض بأكبر قدر من الكفاءة عبر أشكال من التنظيم تنم عن وعي كبير وشعور عميق بالمسؤولية .

كان جميع المسؤولين والمعلمين الأوائل من الصحابة والتابعين ، الذين شهدوا تعليم المعلم الأول ، الرسول ﷺ ، أو ذلك الذي قام به أصحابه بحسب توجيهاته . فحين فتحت الشام ، كتب يزيد بن أبي سفيان الذي تولى جند دمشق الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) طالباً ارسال معلمين يعلمون أهل الشام القرآن ويفقهونهم . فأرسل الخليفة ثلاثة من الصحابة الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول ﷺ وهم : معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء ، وأوصاهم أن يبداً بأبجدهم ، فان رضوا عنها فليخرج واحد الى دمشق وآخر الى فلسطين . فأقام عبادة بجمص وخرج أبو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين . ومات معاذ عام طاعون عمواس (١٨ هـ / ٦٣٩ م) ، فصار عبادة بعدها الى فلسطين ، ومات بها عام (٣٤ هـ / ٦٥٥ م) ، ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات عام (٣٢ هـ / ٦٥٣ م) (٧) .

وحين توفي يزيد بن أبي سفيان دأب خلفاؤه على تعيين مشيخة للجند ( أو للمسجد) (٨) تضم معلمين للاقراء والقصص . وكان المعلم الذي يكلف الاقراء يسمى « قارئ الجند » والذي يندب للقصص يسمى « قاص الجند » . وقد جمع بعضهم بين التعليم فكان قارئ الجند وقاصهم في آن معاً ، مثل أبي الدرداء (ت ٣٢ هـ / ٦٥٣ م) (٩) ، وفضالة بن عبيد الأنصاري (ت ٥٩ هـ / ٦٧٩ م) (١٠) . إلا أن معظمهم كان يكلف نوعاً واحداً من التعليم . فكان ممن كلف القصص : عائذ الله بن عبد الله أبو ادريس الحولاني (ت ٨٠ هـ / ٧٠٠ م) (١١) .

وكان ممن كلف الاقراء : عطية بن قيس الكلابي (ت ١١٠ أو ١٢١ / ٧٢٩ أو ٧٣٩) (١٢)،  
وعبدالله بن عامر اليحصبي (ت ٧٣٧ / ١١٨) (١٣)، ويحيى بن الحارث  
الذماري (ت ٧٦٣ / ١٤٥) (١٤)، وأبو عبد الملك (١٥) .

وبالرغم من أن هؤلاء المعلمين تصدوا والموضوعات أخرى غير تلك التي ندبوا من  
أجلها ، فقد ظهر في القرن الثاني منصب تعليمي آخر في جامع دمشق هو منصب فقيه  
الجند ، كلف صاحبه الاجابة عن استفسارات المؤمنين بشأن ما يستخلص من القرآن والسنة  
من الأحكام لتطبيقها في الحياة العملية . وقد تقلده عدد من العلماء نعرف منهم : العلاء  
ابن الحارث الذماري (ت ٧٤٥ / ١٣٦) (١٦)، وقيس بن موسى الأعمى (ت بعد ١٤٠ /  
٧٤٩) (١٧)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ٧٧٤ / ١٥٧) (١٨)، ويزيد بن  
السمط (١٩)، ويزيد بن يوسف (٢٠) .

والى جانب هؤلاء المعلمين الذين كانوا يكلفون التعليم بصورة دائمة ، كان البعض  
يكلفون أو يسألون التعليم في المسجد بصورة مؤقتة . ومن شواهد ذلك أن عمر بن  
عبد العزيز « أمر عاصم بن عمر بن قتادة المدني أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس  
بمغازي الرسول ﷺ ومناقب أصحابه ٠٠٠ » فقام بذلك فترة ، ثم عاد الى المدينة (٢١) .  
كما كانت هناك توجيهات عامة تحت المعلمين على التعليم في المساجد ، فقد كتب الخليفة  
عمر بن عبد العزيز الى عماله يقول : « أما بعد فأمرُوا أهل العلم أن ينشروا العلم في  
مساجدهم فان السنة كانت قد أميتت » (٢٢) .

وكان أولو الأمر يسهمون في هذا التعليم أحياناً ، كما يستدل من بعض الشواهد . فقد  
روي عن يونس بن ميسرة بن حلبس « أن معاوية توضع للناس وضوء رسول الله ثلاثاً » (٢٣)  
وروي عن وراد أبي الدر ، كاتب المغيرة بن شعبة ومولاه « أن معاوية كتب الى المغيرة أن  
اكتب اليّ بشيء سمعته من رسول الله . فكتب اليه المغيرة أن الرسول كان يقول بعد  
انصرافه من الصلاة (دعاء) ، وأنه حين وفد على معاوية بعد ذلك سمعه على المنبر يأمر  
الناس بذلك القول ويعلمهموه » (٢٤) .

الا أن العناية بالتعليم الديني على الصعيد الرسمي لم تكن لتمنع حملة العلم  
من الجلوس في المسجد وتقديم التعليم بصورة دائمة أو عابرة . بل ان من كان عنده شيء  
من العلم كان يعرف تماماً أن واجبه يقتضيه تعليمه الى سائر المؤمنين . وكما قال ابن  
شهاب الزهري : « ان هذا العلم أدب الله الذي أدب به نبيه عليه السلام ، وأدب النبي به  
أمته ، أمانة الله الى رسوله ليؤديه على ما آدى اليه ، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما  
بينه وبين الله » (٢٥) . لذلك ليس من المستغرب أن نسمع أحد شيوخ القرن الأول يقول :  
« عهدت المسجد الجامع بدمشق وان عند كل عمود شيخاً وعليه الناس يكتبون العلم » (٢٦) .

كما أن وجود مقرئين وفقهاء ووعاظ مكلفين لم يكن يمنع جمهور المؤمنين من التوجه  
الى كل من يعرف بالعلم للافادة من علمه . وكان جامع دمشق هو المكان الرئيس للقاء  
حملة العلم وطلابه .

وكما اعترف للمعلمين بحقهم في ممارسة التعليم في المسجد بناء على مبادرتهم الشخصية، تركت لهم أيضاً الحرية في تنظيم عملهم من حيث تحديد زمانه ومكانه ومقارنته للمتعلمين بصورة تتناسب مع موضوع تعليم كل منهم، وتوفق بين عمله وعمل زملائه من جهة والنشاط العام للمسجد من جهة أخرى .

وقد أفاد المعلمون من هذه الحرية التي منحت لهم فنظموا تعليمهم في تلك الفترة بحسب نماذج رئيسة أربعة ، كما يستدل من الشواهد المتوافرة . وهذه النماذج هي :

التعليم الزمري ، والتعليم الفردي ، والتعليم الجماعي ، والحلقات ، أو المجالس . وقد اتخذ بعض الحلقات أخيراً اسم الزوايا ( جمع زاوية ) .

ومن الممكن أن يكون بعضهم قد اتبع نموذجاً واحداً ، إلا أن قسماً كبيراً منهم كان يناوب بين أكثر من نموذج ، ولا سيما أن معظم المعلمين كانوا يعلمون أكثر من موضوع في تلك الفترة المبكرة من تاريخ التربية العربية الإسلامية ، وأن بعض النماذج يناسب بعض الموضوعات أكثر من غيرها .

#### أ - التعليم الزمري :

أريد من هذا التنظيم تلبية الحاجة الماسة في البداية الى تعليم القرآن الكريم لأكثر عدد ممكن من المسلمين في أقصر فترة ممكنة ، دون وجود نص مكتوب يعتمد عليه ، ذلك أن القرآن لم يكن قد جمع ووزع على الأمصار . ولما كان ذلك يتطلب تكوين أعداد كبيرة من المقرئين في الوقت ذاته ، لجأ أبو الدرداء على ما يبدو الى اجراء اختبار أولي مكثه من اصطفاء ذوي المعلومات السابقة أو القدرات المتميزة ، واتخاذهم مساعدين له أو عرفاء على بقية المتعلمين ، وقسم المتعلمين بدورهم الى فئات صغيرة خص كلاً منها بأحد المساعدين ، كما جاء على لسان أحد تلاميذه :

« قال أبو عبيد الله مسلم بن مشكم ، قال لي أبو الدرداء : أعدد من يقرأ عندنا ، يعني في مجلسنا هذا . فعددت ألفاً وست مائة ونيفاً . فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة عشرة لكل عشرة منهم مقرأء . وكان أبو الدرداء قائماً يستفتونه في حروف القرآن ( يعني المقرئين ) ، فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول الى أبي الدرداء .

وكان أبو الدرداء يبتدىء في كل غداة إذا انفلت من الصلاة فيقرأ جزءاً من القرآن وأصحابه محدقون به يستمعون ألفاظه ، فإذا فرغ من قراءته قام كل رجل منهم الى موضعه وجلس على العشرة الذين أضيفوا عليه . » ( ٢٧ ) .

« وقال يزيد بن أبي مالك : ان أبا الدرداء هو الذي سن هذه الحلقة يقرأ فيها » ( ٢٨ ) .

ولهذا التنظيم ميزتان رئيستان ، تتمثل الأولى في قدرته على تحقيق الاتقان المطلوب في بعض الموضوعات ولا سيما القرآن ، والثانية في اشتماله على مقومات نموه ، لأنه اتخذ من الربط الوثيق بين عمليات التعلم والاختبار والاصطفاء مبدأ عاماً يطبق في نطاق جماعة

المتعلمين كلها وعلى صعيد الزمر فيقرز المزيد من المعلمين ، وهؤلاء يلبون بدورهم حاجات أعداد أكبر من المتعلمين ، وهكذا ...

لذلك أرى أن تسمية هذه المجموعات الصغيرة بالحلقة ( جمع حلقة ) ، لا يعطي فكرة صحيحة عنها ، والأحرى بها أن تسمى زمراً لأنها تضم عدداً قليلاً من المتعلمين يختص بهم معلم واحد ، يستطيع أن يعنى بهم ويتابع تقدمهم .

ومن الممكن تسمية هذا التنظيم أيضاً بتنظيم « المعلمين المساعدين » أو « العرفاء » كما ورد على لسان أحد الشيوخ القدامى . ففي رواية سويد بن العزيز (ت ١٩٤/٨٠٩): « كان أبو الدرداء اذا صلى الغداة في جامع دمشق ، اجتمع الناس للقراءة عليه ، فكان يجعلهم عشرة عشرة ، وعلى كل عشرة عريفاً ، ويقف في المحراب يرمقهم ببصره . فاذا غلط أحد رجع الى عريفه ، واذا غلط عريفهم رجع الى أبي الدرداء يسأله عن ذلك . وكان ابن عامر عريفاً على عشرة » (٢٩) .

ومن الجدير بالذكر أن تلميذ أبي الدرداء هذا ، عبدالله بن عامر اليحصبي ، اتبع الأسلوب نفسه حين آل اليه أمر الاقراء في مسجد دمشق بالرغم من انتشار المصاحف سبياً . فقد قال ابن الجزري عن ابن عامر : « لقد بلغنا عن هذا الامام أنه كان في حلقة أربعمائة عريف يقومون عنه بالقراءة ، ولم يبلغنا أحد من السلف على اختلاف مذاهبهم وتباين لغاتهم وشدة ورعهم أنه أنكر على ابن عامر شيئاً من قراءته » (٣٠) .

ونستطيع أن نلاحظ هنا أن ابن الجزري يطلق اسم الحلقة على مجموع المتعلمين الذين قد يبلغ عددهم الأربعة آلاف ( اذا مافسنا حجم الزمر على ما كان يعمل به أبو الدرداء ، وهو عشرة افراد ) .

## ب - التعليم الفردي :

وجد هذا التنظيم الى جانب أشكال التنظيم الأخرى من البداية بالرغم من أنه يتطلب قسطاً كبيراً من وقت المعلم . الا أن المعلمين الأوائل الذين نذروا أنفسهم لنشر الدين والذود عنه ، كانوا اما في جهاد أو تعليم أو عبادة . وهكذا تسنى لهم الوقت الكافي لأن يعنوا بالطلاب الأكفيا عناية فردية مكنت هؤلاء من الانتقال بدورهم الى مرتبة المعلمين .

ومن أمثلة هذا التعليم ما اتبعه فضالة بن عبيد الأنصاري ، الذي أقرأ في خلافة معاوية ، في تعليم طلابه . فقد كان يقرئهم كلاماً على حدة ، ويقول لكل منهم : خذ هذا المصحف فأمسك علي ولا تزدد علي ألفاً ولا واوا . وكان الطالب يمسك عليه القرآن حتى يفرغ منه (٣١) .

## ج - التعليم الجماعي :

استخدم هذا التنظيم بصورة رئيسة في القصص أو الوعظ ، الا أنه استخدم كذلك في تدريس الحديث والفقه ، وفي القرآن أحياناً . والأساس فيه أن يتجه العالم الى الجماعة كلها . ( ومن هنا الاسم الذي أطلقته عليه ) . لذلك كان يتخير له الوقت الذي يجتمع فيه أكبر عدد من المتعلمين ، ولا سيما بعد صلاة العصر حين ينتهي الناس من أعمالهم ويؤمن المسجد للصلاة وسماع الشيخ ، ويوم الجمعة حين يضم المسجد جموعاً كبيرة من داخل المدينة وخارجها . ويمكننا تشبيهه بالمحاضرة العامة في أيامنا هذه .

وهناك شواهد عديدة على هذا التنظيم نقتطف منها :

- ان أبا الدرداء ( قاضي الجند وقارئه وقاصه في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما ) « كان يقف في مسجد دمشق ، في أعلى الدرج . . . . . ويقص » (٣٢) .
- وان فضالة بن عبيد الأنصاري ( قاضي الجند وقاصه في خلافة معاوية ) كان يقوم في الناس يوم الجمعة فيعظهم قبل خروج معاوية ، ثم يخرج معاوية فيخطب ثم يصلي بالناس » (٣٣) .
- وان أبا إدريس الخولاني ( قاضي الجند وقاصه في عهد عبد الملك ، ت ٨٠ / ٧٠٠ ) « كان يجلس بالعشيات ( بعد العصر بهنية ) على درج مسجد دمشق . . وهو مقبل بوجهه على القبلة ، والناس تحته جلوس يسألونه فيقص عليهم ويحدثهم بالأحاديث ويستفتونه فيفتيهم » (٣٤) .
- وأن « الناس كانوا يصلحون مصاحفهم على قراءة عطية بن قيس الكلابي ( قارئ الجند في خلافة معاوية وبعدها ، ت ١١٠ / ٧٢٩ ) وهو جالس على درج الكنيسة من مسجد دمشق قبل أن تهدم » (٣٥) .
- وأن عبدالله بن مسعود ( الصحابي المعروف ) قدم الى دمشق « ودخل جامعها ، وقام على درج الكنيسة وحدث الناس » (٣٦) .

## و - المجالس والحلقات :

لا يتضمن المعنى اللغوي للمجالس والحلقات ما يشير الى تنظيم ، فالمجلس لا يعني أكثر من فعل الجلوس أو مكانه ، والحلقة لا تعني الا الشكل الدائري . ولكن جلوس المعلمين المرة تلو المرة للتعليم ، وتحلق الطلبة حولهم عفويّاً للتعليم ، كوناً مع الزمن تقاليد وقواعد تشبه من بعض الجوانب الصفوف أو المساقات الدراسية في أيامنا هذه ، وجعلنا المصطلحين مترادفين الى حد ما في هذا المجال . لذلك كان التنظيم منصباً بصورة رئيسة على المجالس والحلقات الدائمة أو شبه الدائمة ، لا على تلك التي كانت تتم عرضاً أو بصورة مؤقتة بمناسبة زيارة شيخ من خارج المدينة ، أو قبول أحد الشيوخ عقد بعض المجالس نزولاً عند طلب الجمهور .

والواقع أن الشواهد الأولى لا توحى بوجود نظام مالمجلوس والتعلق، فأبو الدرداء الذي كان يمضي نهاره كله في جامع دمشق، بادئاً بصلاة الصبح، ومنتقلاً إلى الاقراء على النحو الذي ذكرناه، كان حين يفرغ من الاقراء يجلس في المسجد يحدث الناس ويفتيهم (٣٧) وواثلة بن الأسقع كان يجلس للناس في المسجد ويحدثهم (٣٨)، وقد يملئ عليهم الأحاديث فيكتبونها بين يديه (٣٩) وربما استند بعض المعلمين إلى إحدى الدعامات الخشبية التي تقوم عليها الظلات، وتعلق الطلبة حوله في المكان الظليل، فهذا ترتيب يريخ المعلم والمتعلم على السواء. ولكن توسيع المسجد وتوزيع القسم الأكبر من مساحته إلى أروقة تحف بها عشرات من العمد، ساعداً على تنظيم الحلقات والمجالس في المكان كما أن زيادة الطلب على التعليم وتنوع محتواه دفعا إلى تنظيمها في الزمان. وهكذا اتخذ المعلمون المعروفون لمجلسهم أو حلقتهم موضعاً ثابتاً وزماناً محدداً بحيث يتمكن الطلبة من الحضور إلى مجلس معلمهم في الموعد المحدد، والانتقال إلى آخر إذا كانوا يرغبون في سماع أكثر من معلم. ومن شواهد ذلك ما ذكره سعيد بن عبد العزيز (ت ١٦٧/٧٨٤) عن تنظيم مجالس الفقه والحديث في هذا الجامع أثناء دراسته، فقد قال: «كنا نجلس بالغدوات مع يزيد بن أبي مالك وسليمان بن موسى، وبعد الظهر مع اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر وربيع بن يزيد، وبعد العصر مع مكحول» (٤٠).

كان المجلس (أو الحلقة) في تلك الفترة يسميان غالباً باسم الشيخ الذي يتولى التدريس فيه، ولا سيما أن الشيوخ الأوائل كانوا يعلمون أكثر من مادة دراسية. إلا أن اختصاص المعلمين تدريجياً بموضوع محدد، أضاف إلى المجلس (أو الحلقة) الموضوع الذي يتناوله فقليل: مجلس حديث ومجلس فقه، ومجلس وعظ أو تذكير، ومجلس اقراء، ومجلس نحو.....

ومن الحلقات والمجالس التي درست فيها موضوعات مختلفة في الفترة الأولى:

— مجلس قبيصة بن ذؤيب (ت ٨٦/٧٠٥)، ذكره محمد بن مسلم بن شهاب الزهري في روايته عن قدومه إلى دمشق في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان، وقال عنه أنه كان أعظم المجالس التي رآها في المسجد وأكثرها أهلاً. وقد درس فيه الحديث والفقه (٤١).

— حلقة سعيد بن عبد العزيز التنوخي (ت ١٦٧/٧٨٤) التي استمرت أكثر من نصف قرن، وكان يدرس فيها الحديث والفقه (٤٢).

— مجلس الوليد بن مسلم (ت ١٩٥/٨١٠)، وهو مجلس حديث ومغاز وتاريخ وفقه. ويبدو أنه أُملي فيه مصنفاته التي بلغت سبعين كتاباً (٤٣).

ومن المجالس والحلقات التي اقتصرَت على موضوع بعينه نذكر، في الاقراء:

— مجلس القارئ عبد الله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨/٧٣٧) الذي تنسب إليه القراءة المشهورة بقراءة ابن عامر. وقد طلب الخليفة الوليد بن عبد الملك منه الجلوس للاقراء بين الحناية والقنطرة من جامع دمشق (٤٤).

— حلقة علي بن داود بن عبدالله ، أبو الحسن الداراني المقرئ (ت ١٠١٢/٤٠٢) ، وكان هذا الشيخ امام مسجد داريا ، فلمامات امام الجامع الأموي خرج قاضي دمشق وجماعة من أهلها الى داريا سنة ٩٩٨/٣٨٨ وجاءوا به الى دمشق ونصبوه في المحراب اماماً . سكن بالمنارة الشرقية ، وكان يقرئ في آخر الرواق الأوسط من شرقي الجامع (٤٥) .

— حلقة الحسين بن مبشر بن عبيدالله ، أبو علي المقرئ المعروف بالكتاني (ت ٤٥٣/١٠٦١) ، وقد أقام خمسين سنة يقرئ في الجامع ، وبقيت حلقة تحمل اسم حلقة الكتاني بعد وفاته بالرغم من أن خلفه في الاقراء كان سبيع بن المسلم المعروف بابن قيراط ، وهو من كبار مقرئي الشام (٤٦) .

### وفي الفقه :

— حلقة كنيز بن عبدالله (ت بعد ٨٩٣/٢٨٠) للفقه على مذهب الشافعي . وكان أحمد بن طولون قد حبس كنيزاً هذا طوال سبع سنين لتحمسه الشديد لمذهب الشافعي . ولما مات الأمير خرج من السجن فجاء الى دمشق ونشر هذا المذهب فيها (٤٧) .

— مجلس (أو حلقة) عيلان بن زفر ، أبو الهيثم المازني (ت ٩٣٩/٣٢٨) ، وهو مجلس فقه على مذهب الشافعي أيضاً (٤٨) .

— مجلس (أو حلقة) أحمد بن سليمان بن حذلم ، قاضي دمشق (ت ٩٥٩/٣٤٧) وله تسعة وثمانون عاماً ، وهي آخر حلقة فقه درس فيها مذهب الأوزاعي في هذا الجامع على ما يذكر ابن عساكر (٤٩) .

### وفي الزهد والتصوف :

— حلقة القاسم بن عثمان الجوعي الزاهد (ت ٨٦٣/٢٤٨) . قال عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي : « دخلت دمشق على كتبة الحديث ، فمررت بحلقة قاسم الجوعي ، فرأيت نفرأ جلوساً حوله وهو يلقي مواظله ، فجعلت فائدتي من دمشق (٥٠) .

— مجلس أحمد بن يحيى ، أبو عبدالله بن الجلا (ت ٩١٨/٣٠٦) . وكان أبو عبدالله ابن الجلا من أهل بغداد ، انتقل الى الشام وأقام في الرملة ودمشق . وكانت له جماعة كبيرة تختلف اليه (٥١) .

### وفي النحو :

— حلقة علي بن طاهر بن جعفر ، أبو الحسن القيسي السلمي النحوي (ت ٥٠٠/١١٠٧) وقد وقف في حلقة خزانة تضم كتبه (٥٢) .

ويلاحظ في هذه الحلقات أن الطلاب كانوا يتخذون أماكنهم بحسب زمن وصولهم الى الحلقة ، عملاً بالسنة التي تقضي بأن يجلس الشخص حيث تنتهي به الحلقة ، كما يلاحظ



أن بعض المعلمين كانوا يوصون بحلقتهم الى بعض طلابهم من بعدهم . فقد جاء يزيد بن عبد الملك الأموي أيام طلبه العلم الى حلقة الفقيه مكحول في جامع دمشق ، فلما رآه أصحاب مكحول هموا بالتوسعة له ، فقال لهم مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس يتعلم التواضع (٥٣) . وقد أوصى مكحول بحلقته بعد وفاته الى تلميذه ثابت بن ثوبان . الا أن طالباً آخر من طلابه جلس فيها بعده (٥٤) .

كما كان التلميذ يطلب أحياناً من أستاذه أن يوصي له بحلقته ، فحين رأى يزيد بن عبد الصمد أن معلمه عبيد الله بن عبد الكريم أبا زرعة الرازي ( ت ٨٤٢/٢٢٨ ) يوشك أن يعود الى بلده ، قال له : يا أبا زرعة اجعلني خليفتك في هذه الحلقة ، فأجابه الى طلبه (٥٥) .

وهكذا نرى أن انتظام الحلقات كان يعني استمرارها في المكان نفسه من الجامع وانتقالها من شيخ الى آخر ، مع محافظتها غالباً على الموضوع نفسه والاتجاه نفسه .

ومن الحلقات التي اجتمعت فيها هذه الصفات في نهاية القرن الخامس الهجري « الزاوية الغربية » وهي حلقة تدرس الفقه على المذهب الشافعي ، بدأها الشيخ نصر بن ابراهيم المقدسي الذي أقام في دمشق يدرس في ركن يقع في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع من عام ١٠٨٧/٤٨٠ حتى وفاته عام ١٠٩٧/٤٩٠ ، دون أن يتقاضى أجراً أو يقبل صلة ( وكان يقات من غلة تحمل اليه من أرض كانت له بنا بلس ، يخبز له منها في كل ليلة قرص في جانب الكانون (٥٦) . واستمرت الحلقة بعده حاملة اسمه حيناً ، واسم « الزاوية الغزالية » حيناً آخر نسبة الى أبي حامد الغزالي الذي جلس فيها فترة ، حتى صَفَر من سنة اثنين وسبعين وخمسمائة ، وفيها وقف السلطان ( الملك الناصر ) قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو يعلم يحتاج اليه الفقيه و ( الى ) الحضور لسماع الدرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي رحمه الله تعالى وعلى من هو مدرسه بهذا الموضوع من أصحاب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وجعل النظر ( في الوقف ) للشيخ قطب الدين النيسابوري رحمه الله تعالى . . . » ، كما يقول أبو شامة في الروضتين (٥٧) . وبحصول هذه الحلقة على الوقف استكملت جميع الخصائص التي تميزت بها المدارس التي نشأت خارج الجامع بدءاً من عام ١٠٩٨/٤٩١ كما رأينا ، وهكذا أصبح من الطبيعي أن يطلق عليها اسم المدرسة الى جانب الاسمين السابقين وهما : الحلقة والزاوية (٥٨) .

#### □ الخلاصة :

المسجد الجامع بدمشق هو المؤسسة التربوية الأم التي حملت مسؤولية التربية العربية - الاسلامية بصورة رئيسة في المدينة وما حولها في القرون الأربعة الأولى للهجرة . وقد ازدهرت فيها أشكال من التقديم والتنظيم ، أسهم فيها أولو الأمر بتعيين قراء وقصاص وفقهاء للجند يمارسون عملهم داخل الجامع ، وعمد المعلمون الى تكييف طرائقهم بحسب

الأهداف التي يعملون من أجلها • وهكذا تمايزت موضوعات التعليم تدريجياً ، وانصب اهتمام كل فئة منهم على تعميق ما تتقنه منها، دون اغفال التكامل بين الموضوعات المختلفة والتنسيق فيما بينها •

وحين شعرت بعض الفئات برسوخ أقدامها في الميدان الذي تعمل فيه ، بادرت الى انشاء مؤسسات خاصة بها معتمدة على الخبرات التي اكتسبتها في الجامع • وأول هذه الفئات الزهاد والمتصوفة الذين أقاموا لأنفسهم دوريات وخوانق ، ذكرت لنا المراجع منها أول ما ذكرت « دويرة حمد » التي أنشئت في بداية القرن الخامس (٥٩) • ولم يتأخر القراء عنهم، فقد أنشأ رشاً بن نظيف أولى دور القرآن بدمشق وهي « دار القرآن الرشائية » عام ١٠٠٩/٤٠٠ (٦٠) • أما الفقهاء فبعد أن أقام بعضهم مجالس لهم في بيوتهم (٦١) ، أنشأ أولو الأمر لهم المدارس بدءاً من نهاية القرن الخامس – كما رأينا (٦٢) • ولم يأت دور المحدثين في الحصول على مؤسسات خاصة حتى أواسط القرن السادس « حين بنى ( نورالدين محمود بن زنكي ) بدمشق أيضاً دار الحديث ( النورية ) ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة • وهو أول من بنى دار حديث في ما علمنا » ، كما يقول أبو شامة في أول الروضتين في ترجمة نور الدين (٦٣) •

ولكن المؤسسات الجديدة لم تضعف التدريس في المسجد الجامع باستقطاب الأكفيا من المعلمين في كل ميدان ، بل زادته شمولاً وعمقاً، لحرص المعلمين البارزين على الاحتفاظ بمكانهم في الجامع الى جانب الوظائف التي تبوؤوها في المؤسسات الجديدة ، ولاحتضان الجامع عدداً من هذه المؤسسات الجديدة بين ظهرانيه ، كالزاوية الغربية وغيرها من مدارس الفقه • كما أن ازدياد المؤسسات وتنوعها لم يخل بوحدة نظام التربية العربية الاسلامية وتكامله ، لأن المؤسسات المختلفة انطلقت من الأصل نفسه وراحت تدور حوله، كما تفعل الأقمار في المنظومة الفلكية الواحدة •

#### □ الحواشي :

- ١ - عبد القادر النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، نشر وتحقيق جعفر الحسني ، المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، ج ١ ، ص ٥٣٧ •
- ٢ - ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ( مخ ط ٢ ) ، ١٨٤/٥ ، ترجمة خالد بن اللجلاج ، جاء فيها : « كان خالد بن اللجلاج على بناء مسجد دمشق سنة ١٤ هـ ، أي سنة فتح دمشق » •
- ٣ - المصدر نفسه ( منجد ٢ ) ١٤ ، جاء فيه : « سمعت أبا زرعة يقول : مسجد دمشق خطه أبو عبيدة بن الجراح وكذلك مسجد حمص » •
- ٤ - راجع : ملكة أبيض ، « الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق من الفتح حتى عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م » في : دراسات تاريخية ، العدد ٧ ، ك ٢/يناير ١٩٨٢ ، ص ٩٨ - ١١٥ ، دمشق •
- ٥ - تاريخ مدينة دمشق ( منجد ١ ) ، ٣١٥ ، جاء فيه ان حلق القراء الذين علمهم أبو الدرداء (رض) كانت تضم أكثر من ألف وستمئة قارئ •

٦ - المصدر نفسه ( منجد ٢ ) ، ١٨ ، جاء فيه أيضا أن البناء استمر من ست الى تسع سنوات .

٧ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٢٦٦/٨ ب ، ترجمة : عبادة بن الصامت ، وهي تضم النص كله .

٨ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٢١٣/١١ ب ، ترجمة : عطية بن قيس الكلابي ، جاء فيها عن الهيثم بن عمران ، أنه كان يدخل مع مشيخة الجند على معاوية ، وعن أبي زرع : أنه كان يدخل مع مشيخة المسجد . راجع : تاريخ أبي زرع الدمشقي ١/ ٣٤٥ .

٩ - المصدر نفسه ( منجد ١ ) ، ٣١٥ ، و ( مخ ظ ٢ ) ٢٦٤/١٣ أ ، ترجمة : عويمر بن زيد ، أبو الدرداء .

١٠ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٣٩٢/١٤ ، ترجمة : فضالة بن عبيد الانصاري ، و ( مخ باريس ) ، ٢٢٥/١٩ ب ، ترجمة : أبو قنان ، طلحة بن أبي قنان .

١١ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٢٦١/٨ أ ، ترجمة : عائذ الله بن عبدالله ، أبو ادريس الغولاني .

١٢ - المصدر نفسه : ترجمة عطية بن قيس ، ذكرت سابقا .

١٣ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ١٤٦/٩ أ ، ترجمة : عبدالله بن عامر اليحصبي .

١٤ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٢٣/١٨ أ ، ترجمة : يحيى بن العارث الذماري .

١٥ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٥٠٥/١٦ أ ، ترجمة : مروان ، أبو عبد الملك .

١٦ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٢٨٤/١٣ أ ، ترجمة : العلاء بن العارث الذماري .

١٧ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٥٠٤/١٤ ب ، ترجمة : قيس بن موسى الاعمى .

١٨ - المصدر نفسه : الترجمة نفسها .

١٩ - المصدر نفسه : ( مخ ظ ٢ ) ١٣٩/١٨ أ ، ترجمة يزيد بن السمط .

٢٠ - المصدر نفسه ( مخ باريس ) ، ٢/١٨ أ ، ترجمة : يزيد بن يوسف . اضافة الى المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ١٣٤/٣ ب ، ترجمة : ايوب بن تميم ، جاء فيها : كانت قراءة الجند على أبي عبد الملك القاري ، والامام يحيى بن العارث الذماري ، وفيها أيضا : يزيد بن السمط ويزيد بن يوسف فقيها الجند ، وأبو خليف الدمشقي وايوب بن تميم قارئ الجند .

٢١ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٢٠٧/٨ أ ، ترجمة : عاصم بن عمر بن قتادة .

٢٢ - ابن الجوزي : سيرة عمر ، ص ٩٤ .

٢٣ - تاريخ مدينة دمشق ( مخ باريس ) ، ٧٠/١٨ ب ، ترجمة : يونس بن ميسرة بن حلبس .

٢٤ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٤٢٢/١٧ ب ، ترجمة : وراد أبو الدر .

٢٥ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٣٠٧/١٥ ب ، ترجمة : محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

٢٦ - المصدر نفسه ( منجد ١ ) ، ٣١٥ .

٢٧ - المصدر نفسه ( منجد ١ ) ، ٣١٥ .

٢٨ - المصدر نفسه ( مخ ظ ٢ ) ، ٢٦٤/١٢ أ ، ترجمة : عويمر بن زيد ، أبو الدرداء .

٢٩ - الذهبي ، طبقات القراء ، ٦٣٣ .

٣٠ - ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ، ٢٦٤/٢ .

٣١ - تاريخ مدينة دمشق ( مخ ظ ٢ ) ، ٣٩٢/١٤ أ ، ترجمة : فضالة بن عبيد الانصاري ، سبق ذكرها ، والذهبي ، طبقات القراء ، ص ٦٥٠ .

٣٢- تاريخ مدينة دمشق ( مخ ط ٢ ) ، ترجمة : أبو الدرداء ، سبق ذكرها .

٣٣- المصدر نفسه ( مخ باريس ) ، ١٩ ، ٢٢٥ ب ، ترجمة : أبو قنان ، سبق ذكرها .

٣٤- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٨/٦١ أ ، ترجمة : يحيى بن سعيد الدمشقي .

٣٥- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ترجمة : عطية بن قيس الكلبي ، سبق ذكرها .

٣٦- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٢/٤٩١ أ ، ترجمة : عمارة بن سلمان .

٣٧- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٠/٥١١ ب ، ترجمة : عبد الواحد الدمشقي ، وغيرها .

٣٨- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٩/٢٣٣ ب ، ترجمة : أبو عامر الرحبي .

٣٩- المصدر نفسه ( مخ ط ) ، ١٧/٤٠٩ أ ، ترجمة : واثلة بن الأسقع .

٤٠- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ٧/٢٥٦ ب ، ترجمة : سليمان بن موسى الأشدق .

٤١- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٥/٣٠٧ ب ، ترجمة : محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

٤٢- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ٧/١١٤ أ ، ترجمة : سعيد بن عبد العزيز .

٤٣- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٧/٤٧١ ب ، ترجمة : الوليد بن مسلم .

٤٤- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ٩/١٤٦ أ ، ترجمة : عبد الله بن عامر اليحصبي ، وتاريخ أبي زرعة ، ١/٣٤٣ وفي تاريخ مدينة دمشق ( منجد ٢ ) ، ١٤ : الحنية يعني القنطرة الغربية قرب الباب الصغير .

٤٥- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٢/٣١٠ ب ، ترجمة : علي بن داود ، أبو الحسن الداراني .

٤٦- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ٥/٤٧ أ ، ترجمة : الحسين بن مبشر بن عبيد الله ، أبو علي المري .

٤٧- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٤/٥٥٩ أ ، ترجمة : كنيز بن عبد الله ، أبو علي الغادم .

٤٨- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٤/٣٥٠ أ ، ترجمة : عيلان بن زفر .

٤٩- المصدر نفسه ( مختصر ابن منظور ) ، ٣ ، ترجمة : أحمد بن سليمان بن حذلم .

٥٠- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٤/٤٤٤ أ ، ترجمة : القاسم بن عثمان الجوعي .

٥١- المصدر نفسه ( مخ أحمد الثالث ) ، ١/٤٠٢ ، ترجمة : أحمد بن يحيى ، أبو عبد الله بن الجلا .

٥٢- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٢/٤٣٤ أ ، ترجمة : علي بن طاهر بن جعفر ، أبو الحسن القيسي السلمي النحوي .

٥٣- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٨/١٦١ أ ، ترجمة : يزيد بن عبد الملك ، الخليفة الأموي .

٥٤- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٣/٢٨٤ أ ، ترجمة : العلاء بن الحارث الذماري .

٥٥- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٠/٥٤١ أ ، ترجمة : عبيد الله بن عبد الكريم ، أبو زرعة الرازي .

٥٦- المصدر نفسه ( مخ ط ٢ ) ، ١٧/٣٥٢ ب ، ترجمة : نصر بن إبراهيم المقدسي ، الفقيه الشافعي الزاهد .

٥٧- الدارس في تاريخ المدارس ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

٥٨- المصدر نفسه .

٥٩- تهذيب ابن عساكر ، ٤/٤٣٥ ، ترجمة حمد بن عبد الله ، أبو الفرج المقرئ ( ت ١٠١٠/٤٠١ ) . وقد وقف هذا الشيخ داره لسكنى الزهاد والصوفية .

٦٠- الدارس في تاريخ المدارس ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١١ .

٦١- تاريخ مدينة دمشق ( مختصر ابن منظور ) ، ترجمة : أحمد سليمان بن حذلم ، وفيها أنه كان لهذا الفقيه مجلس في الجمعة يملئ فيه في داره ، بالإضافة الى حلقاته الدائمة في جامع دمشق .

٦٢- اشارة الى المدرسة الصادرية التي جاء ذكرها في الصفحة الاولى من البحث .

٦٣- الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

## □ مراجع البحث :

### ١ - المصادر القديمة :

استندت في هذا البحث الى مصدر رئيس هو :

- ابن عساکر ( علي بن الحسن ) ، تاريخ مدينة دمشق ، كتبه بين ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م و ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م . واستمر يعمل فيه اضافة وتصحيحا حتى نهاية حياته سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م . وهو في ١٩ مجلدة كبيرة . وقد استعنت منه بما يلي :
- النسخة المخطوطة التي وقفها سليمان باشا العظم بدمشق ، وهي من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق . اشرت اليها في الحواشي ب ( مخ ظ ١ ) .
- النسخة المخطوطة التي وقفها أسعد باشا العظم على مدرسة والده بالخياطين بدمشق ، وهي من مخطوطات المكتبة الظاهرية أيضا ، اشرت اليها في الحواشي ب ( مخ ظ ٢ ) .
- نسخة باريس ، بالنسبة للمجلدة الأخيرة من المخطوط ، وهي تشكل - في رأيي - ذبلا له كتبه ابن المؤلف ( القاسم ) ، وفيها ترجمات اضافية . اشرت اليها في الحواشي ب ( مخ باريس ) .
- مختصر ابن منظور ( محمد بن المكرم الأنصاري ) لتاريخ مدينة دمشق ( مخطوط ) ، اشرت اليه في الحواشي ب ( مختصر ابن منظور ) .
- نسخة مكتبة أحمد الثالث باستامبول لبعض أجزاء المخطوط ، اشرت اليها في الحواشي ب ( مخ أحمد الثالث ) .
- نسخة ييل ، رمزت لها ب ( مخ ييل ) .
- نسخة كامبردج ، رمزت لها ب ( مخ كامبردج ) .
- وقد اعتمدت في هذه النسخ على الصور والأفلام التي تقتنيها المكتبة الظاهرية بدمشق . وجدير بالذكر أن مخطوطات المكتبة الظاهرية انتقلت أخيرا الى مكتبة الأسد بدمشق .
- القسم المطبوع الذي حققه الدكتور صلاح الدين المنجد وصدر عن المجمع العلمي بدمشق ، ١٩٥١ و ١٩٥٤ في جزأين يشكلان معا المجلدة الأولى من الكتاب . وقد اشرت اليهما في الحواشي ب ( منجد ١ ) و ( منجد ٢ ) .
- القسم المطبوع الذي حققه الأستاذ محمد أحمد دهمان ، وصدر عن المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٣ . وهو يترجم لعدد من الاعلام بادئا « بشري » ومنتهيا « بثابت » .
- هذا وقد طبعت اقسام جديدة من المخطوط أخيرا ولكن لم يتسن لي بعد مقابلتها مع الاصول التي احتفظ بها .
- وهناك تهذيب ابن عساکر الذي نشره عبدالقادر بدران وأحمد عبيد في سبع مجلدات ، بين ١٩١١ و ١٩٣٢ بدمشق . وهو يغطي التاريخ من بدايته حتى قسم من حرف العين .



## □ أما المصادر الأخرى فهي :

- أبيض ( ملكة ) ، التربية والثقافة العربية - الاسلامية في الشام والجزيرة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٠ .
- أبيض ( ملكة ) ، « الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق من الفتح حتى عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م في : دراسات تاريخية ، العدد ٧ ، ك ٢ ، يناير ١٩٨٢ ، ص ٩٨ - ١١٥ ، دمشق .
- ابن الجزري ( محمد بن محمد ) ، النشر في القراءات العشر ، مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة ، دت .
- ابن الجوزي ( أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ) ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، مطبعة المؤيد بمصر ، ١٣٣١ هـ .
- الذهبي ( محمد بن أحمد ) ، طبقات القراء ، استامبول ، مطبعة المساعي ، ١٩١٣/١٣٣١ .
- أبو زرعة ( عبد الرحمن بن عمر النصري ) ، تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٠ .
- النعيمي ( عبد القادر ) ، الدارس في تاريخ المدارس ، نشر وتحقيق جعفر الحسني ، المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، جزءان .